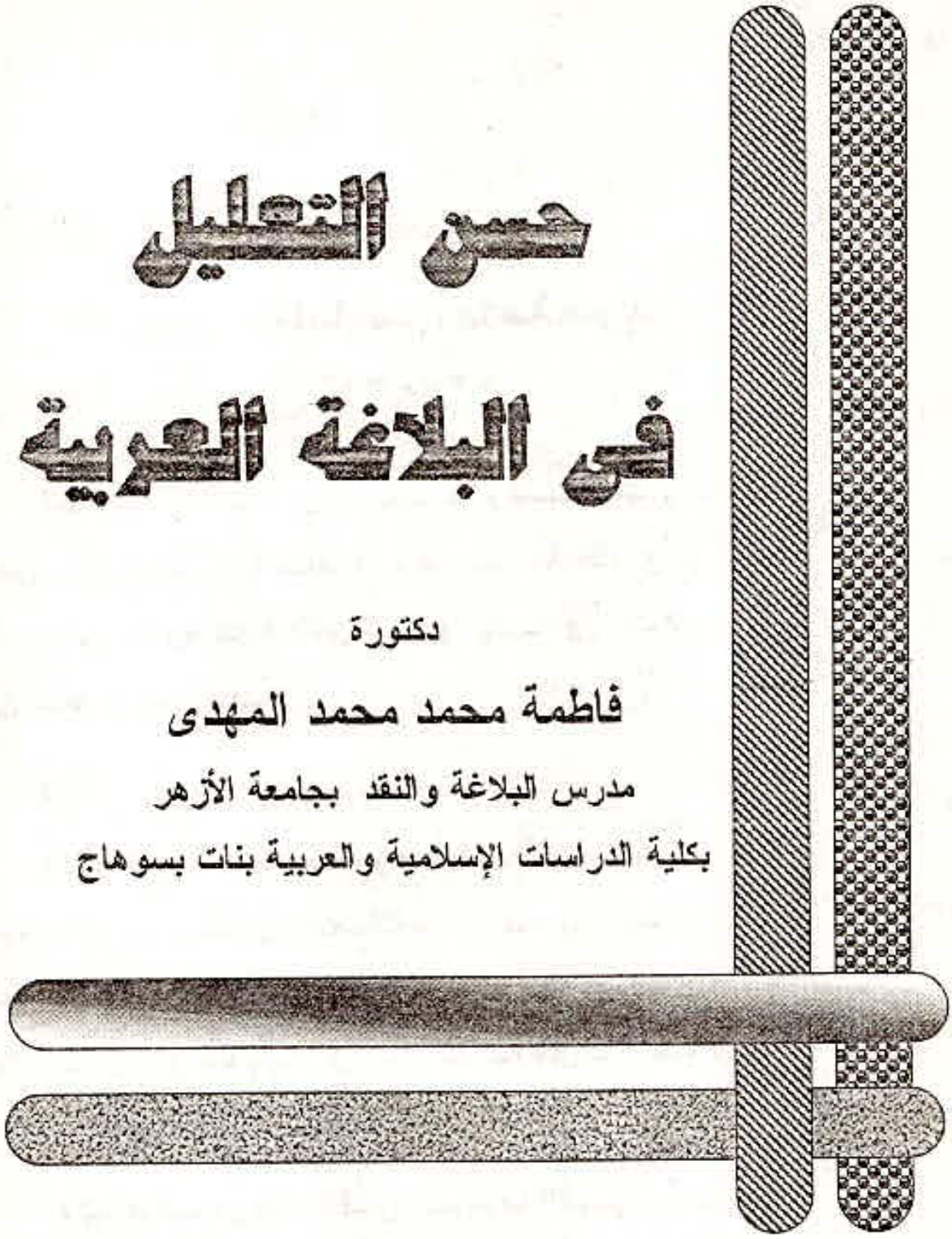

حسن التعليل
في البلاغة العربية

دكتورة

فاطمة محمد محمد المهدى

مدرس البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بسوهاج

حسن التعليل فى البلاغة العربية

******

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على معلم الأميين ، أفصح الناس منطقا ، وأقومهم لسانا ، وأعرفهم بيانا ، وعلى آله وصحابته الذين تأدبوا بأدبه وارتشفوا من معين سنته إلى يوم الدين .

وبعد

فاللغة العربية لغة جميلة ، وجمالها ينبعث من جرسها وإيقاعها كما ينبعث من العلاقات بين ألفاظها وهذا يتأتى عندما تصاغ فى صورة تتميز بالجمال والكمال ، وتكون قمه الإبداع اللغوى ، و مما ينبئ عن جمال اللغة العربية ما فيها من ألوان بديعية معنوية أو لفظية

والبديع ليس ترفا فى الأسلوب الأدبى ، أو حلية يمكن الاستغناء عنها ، بل هو الغاية من العلوم الأدبية كلها وهو فى الذروة منها وليس نابعا لها .

ومنزلته من علوم البلاغة سامية حيث يكون كالرحيق الذى تتركز فيه الحلاوة ويتجمع فيه السكر .

وقد اخترت محسنا من المحسنات البديعية المعنوية الجميلة ، وأحببت أن أعرف تاريخه وأطواره وأنواعه ، وبلاغته فى النظم العربى وهو : " حسن التعليل "

لهذا كان عنوان بحثى " حسن التعليل فى البلاغة العربية "

وهو محسن من المحسنات البديعية التى تظهر فيها مسحة الجمال ، وطابع الذوق السليم .

وقد جاء البحث فى مقدمة وفصلين وخاتمة

المقدمة : ذكرت فيها موضوع البحث ، وسر اختيارى لهذا الموضوع ، والمنهج الذى سرت عليه .

الفصل الأول : نشأة حسن التعليل وتطوره وقد جاء فى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : حسن التعليل فى العصر الجاهلى .

المبحث الثانى : حسن التعليل فى عصر صدر الإسلام .

المبحث الثالث : الأطوار التى مر بها حسن التعليل .

الفصل الثانى : حسن التعليل بين القدماء والمحدثين

وقد جاء فى مبحثين :

المبحث الأول : حسن التعليل عند القدماء وقد تحدثت فيه عن أول من سبق إلى حسن التعليل وأول من استعمله .

المبحث الثانى : حسن التعليل عند المتأخرين .

وقد تناولت فيه تعريف " حسن التعليل " بمعناه المعروف الآن لدى البلاغيين ، وأضربه وما يلحق به كما تحدثت عن حسن التعليل فى النثر .

ولا أدعى الكمال فالكمال لله وحده ، ولعلى أكون قد وفقت فى بحثى هذا ؛؛؛

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؛؛؛

الفصـــل الأول

نشأة حسن التعليل وتطوره

ويشتمل على

المبحث الأول :

حسن التعليل فى العصر الجاهلى

المبحث الثانى :

حسن التعليل فى عصر صـــدر الإســـلام

المبحث الثالث :

الأطوار التى مر بها حســـن التعليـــل

المبحث الأول

حسن التعليل فى العصر الجاهلى

تاريخ حسن التعليـــل

قبل الحديث عن تعريـــف حســـن التعليـــل وأضربـــه ومـــا يلحق به لابد من معرفـــة تاريخـــه وأطـــواره التـــى مـــر بـــها ، وأول من إســـتعمله

أولاً : حسن التعليل فى العصـــر الجـــاهلى :

إذا نظرنا إلى حسن التعليل نجـــد أنـــه لـــم يســـتعمل فـــى العصر الجاهلى بمعناه المعـــروف الآن لـــدى البلاغيـــن ، وكـــان ذلك لعدة أســـباب :-

١ــ أن القوم فى هذا العصر كانوا يميلـــون إلـــى الصـــدق فى شعرهم ونثرهم ، فكانوا لا يمدحـــون الرجـــل إلا بمـــا فيـــه ، ولا يذمونه بما ليس فيه ، وحجتهم فى ذلك أن خـــير الكـــلام مـــا خرج مخرج الحق وجاء على منهاج الصـــدق مـــن غـــير إفـــراط ولا تفريـــط .

يقول حسان بن ثـــابت :

وإنما الشعر لـــب المرء يعرضـــه

على المجـــالس إن كيســـا وإن حمقـــا

فإن أشعـــــر بيـــــت أنت قائلـــــه

بيت يقـــــال إذا أنشـــدته صـــدقـــاً

كما امتدح النـــاس زهـــيراً حيـــن ألقـــى عـــن المـــادحين فضول الكلام بقولـــه :

وما يك من خير أتوه فإنمـــا

توارثه آباء آبائـــهم قبـــل (١)

ولم يوجد في العصر الجاهلي مـــن يقـــول لممدوحـــه كمـــا قال ابن هـــانئ :(٢)

ما شئت لا ما شاءت الأقـــدار

فاحكم فأنت الواحـــد القـــهار

---

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني ت ٤٦٣ هـ ١/٩٨ وما بعدها ـ دار الجيل ـبيروت، حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٤/٣٥٨ ـدا السرور ـبيروت .

(٢) تنبيه المعاني في شرح ديوان ابن هانئ لمحمد بن هانئ الأندلسي المغربي ص ٣٦٥ طبعة حيدر أباد الدكن ـ الهند ١٣٥٢ هـ .

فالشعر الجاهلى كان يتصف بالصدق والبعد عن الكذب الذى فسره الإمام عبد القاهر بالتجاء الشاعر إلى الخيال ، وعدم الوقوف عند حدود ما يقوم على إثباته البرهان واليقين .

والمراد بخير الشعر أصدقه " ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن فى الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى بها نحو الصدق فى مدح الرجال ، كما قيل : " كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه .....

فمن قال " خير الشعر أصدقه " كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ،واعتماد ما يجرى من العقل على أصله صحيح أحب إليه وآثر عنده ، إذا كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ،وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال : " أكذبه " ذهب إلى الصنعة إنما يمد باعها وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتحليل يقصد التلطف والتأويل ،ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق فى المدح والذم والوصف والنعت والفخر والمباهاة ، وسائر المقاصد والأغراض ،

وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع يزيد ، ويبدى فى اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً ومدداً من المعاني متتابعا ، ويكون كالمغترف من عد لا يتقطع والمستخرج من معدن لا ينتهى ".(١)

فالإمام عبد القاهر فسر الكذب فى الشعر بالمبالغة الجميلة ، والخيال الواسع .

٢ــ إن أدباء العصر الجاهلى كانوا يصفون المشاهد المحسوسة ، ولا يتكلمون إلا عن الواقع الملموس (٢)

فشعراء هذا العصر كانوا يتصفون بالصدق فى شعرهم مع من يمدحونه وما يصفونه ، وحسن التعليل يعتمد على الخيال الرائع ، والإختراع الجميل فلم يوجد من بينهم من يقول كما قال أبن الرومي (٣)

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

---

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ٢٧١، ١٧٢ تحقيق محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدنى : الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

(٢) أسس النقد الأدبى عندالعرب/ أحمد أحمد بدوى ـص ٤٣١ـدار نهضة مصر

(٣) ديوان بن الرومى ٣٩٤/١ دار الكتب ، وانظر معاهد التنصيص للعباسى ٥٦ مطبعة السعادة وفى المرشدى على عقود الجمان للسيوطى ٢١/٢ ينسبا لأبن المعتز ـ المطبعة اليمنية بمصر ١٣٠٦هـ

أو يقول كما قال الصنوبـــرى [١]

وكان محمر الشقيـــق إذا تصوب أو تصعـد

أعـــلام ياقـــوت نشر نعلى رماح من زبرجد

٣ــ أن حجية الشعر الجاهلى أقـوى فـى الاستشـهاد بـه مـن غـيره فلـو ذكـر حسـن التعليـل فـى الشـعر الجـاهلى لإستشهدت به الكتـــب التـى كتبـت فـى علـم البديـع ومعظـم الشواهد الواردة فى كتب البديع عن حسـن التعليـل مـن العصـر العباسى ، كما سنبين ذلك إن شـاء الله تعـالى .

٤ــ إن العلماء الذيـن كتبـوا فـى علـوم البلاغـة كـأبى هلال العســكرى ت ٣٩٥ ، وإبـن رشـيق القـيروانى ت ٤٦٣ ، والسكاكى ت ٦٢٦هـ لم يذكروا هـذا المحسـن البديعـى .[٥]

وقد ذكره الإمـام عبـد القـاهر الجرجـانى ت ٤٧١هـ وسماه التعليل [٦] وربما كان هو اول من نبـه إليـه الأذهـان .

---

(١)قال العباسى فى معاهد التنصيص ١/١٣٣ لم أقف على اسم قائلها وقد نسبهما الإمام عبد القاهر فى أسرار البلاغة للصنوبرى ، وليسا فى ديوانه المطبوع .

(٢) يراجع الصناعتين والعمدة ومفتاح العلوم .

(٣) أسرار البلاغة ٢٧٧ وما بعدها ، وقد عده وجها من وجوه التخيل .

كما ذكره الزمخشرى ت ٥٣٨ هـ صاحب كتاب الكشاف وكان يسميه التخيل ، وكان يستدل فى تفسير بعض الآيات التى يظن أن بها تخبيلاً بأبيات تدل دلالة صريحة على حسن التعليل وسيأتى ذلك فى بابه إن شاء الله .

٥ـ وإذا قال قائل أن حسن التعليل قد ورد فى العصر الجاهلى فى قول النابغة الذبيانى يمدح بنى غسان بقوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم

عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيلة

إذا ما التقى الجمعان كان أول غالب

ويمكن الرد على ذلك بأن هذا لا يُعَدُّ من حسن التعليل لتصدير البيت الأول ب "إذا " وفيها معنى الشرط والتعليق ، والشاعر فى حسن التعليل إنما يدعى تحقق العلة .

والشواهد التى أوردها علماء البديع خالية من " إن , إذ لبناء الأمر فى هذه الأدوات على الشك أما استشهاد الخطيب القزوينى بقول الشاعر [١]

---

(١) هو بيت فارسى ترجمته ما قيل ، ينظر أسرار البلاغة ٢٧٨ تحقيق محمود شاكر ط : المدنى .

لو لم تكن فيه الجوزاء خدمتـــه

لما رأيت عليـــها عقـد منتطـق

فلو إمتناعية فيها معنى النفى و لم نافيـــة ، ونفـــى النفـــى إثبات ، فلا شرط ولا تعليـــق إذن .

يقول الخطيب القزوينـــى :

" واعلم أن لـــو تفيـد نفـى مدخولـها شـرطا وجوابـاً ، فشرطها نفى نية الخدمة ، وجوابها نفى رؤيـــة نطـاق الجـوزاء فتفيد " لو " نفى هذين النفييـــن فتثبـت نيـة الخدمـــة ، ورؤيـــة نطاق الجـوزاء فتفيـد لـــو نفـى هذيـن النفييـن فتثبـت نيـة الخدمة ، ورؤيـــة نطـاق الجـوزاء ،فحـاصل معنـى البيـت أن الجـوزاء مع ارتفاعـــها لـها عـزم ونيـة علـى خدمـة ذلـك الممدوح ، ومن أجـل ذلـك إنتطقـت أى شـدت النطـاق تـهيؤا لخدمته فلو لم تنو خدمته مـــا رأيـت عليـها نطـاق شـدت بـه وسـطها "(٢)

وقد شارك المتنبى النابغة فى هـــذا المعنـى حيـن قـال :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقى أخلاق مـــا ترجـو الذئـاب

وبالمقارنة بين المعنيين نـــرى أن المتنبـى جعـل الأمـر حقيقـة

---

(١) الإيضاح للخطيب القزوينى ٤/٣٨٠- شروح التلخيص

ثابتة لا شك فيها ولا تعليق ولو كان فى بيتى النابغة حسن تعليل لاستشهد بهما العلماء ، وقدموا صاحبهما على المتنبى ، فقصيدة النابغة شهيرة جداً ، وبيتيه أشهر وأشهر.

نخلص من هذا كله إلى أن حسن التعليل بمعناه البلاغى المعروف الأن لم يستعمل فى العصر الجاهلى وأن الأبيات التى يظن أن بها حسن تعليل ليست منه إذا دخلها الشرط وأدواته ومعا نية وإنما وجدت بذوره وخاماته الأولى.

المبحث الثانى

" حسن التعليل فى عصر صدر الإسلام "

أولاً : حسن التعليل فى القرآن الكريم والسنة النبوية :-

جدير بالذكر أن نقول أن حسن التعليل لم يقع فى القرآن الكريم ، ولا فى السنة النبوية الشريفة ، فلا يوجد له شاهد واحد فيهما ، وذلك لأن القرآن والسنة يطلان الأشياء تعليلاً حقيقياً مطابقاً للواقع ، ولا يعللانها تعليلاً ادعائيا خيالياً .

وخلو القرآن من حسن التعليل لا يعيبه لأنه كتاب الله الذى أحكمت آياته وصينت عن الكذب ، والتحليق فى سماء الخيال ، شأن الكتب الدينية التى نتحدث عن الواقع ونربط المعلومات بعللها الحقيقية ، وليس من شأنها أن تتكلف بخلق الخيال ، وتحسين الكذب .

يقول الدكتور أحمد إبراهيم موسى : ..... وحسن التعليل لم يكن يعرفه العربى قبل الإسلام ولا فى الصدر الأول منه ، ولهذا لا تجد له شاهداً واحداً من الشعر العربى القديم ، ولا فى القرآن الكريم ، ولا فى الحديث الشريف ، ولا فى آثار الصدر الأول ، لأن الرجل العربى قبل الإسلام وبعده كان صادقاً مع نفسه ومع من حوله يأخذ الأمور على طبيعتها ، ولا يفهمها على غير وجهها ، ولا يلصق بها علة غير علتها الحقيقية " .(١)

كما أن علماء البلاغة لم يستشهدوا عليه مطلقا بآية من القرآن الكريم ، ونحن نعلم أن الاحتجاج بالقرآن الكريم أول ما يعنى به الباحثون فى علوم البلاغة ، فقد استشهدوا على المبالغة بقوله تعالى : :"يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار " (٢)

وفى المشاكلة بقوله :" وجزاء سيئة سيئة مثلها "(٣) وفى الاستطراد بقوله تعالى :﴿يا بنى آدم قد

---

(١) الصبغ البديعى ص ٣٥ ، د/ أحمد إبراهيم موسى ـ دار الكتاب العربى بالقاهرة ١٩٦٩م

(٢) سورة النور آية: ٣٥ .

(٣) سورة الشورى آية ٤٠ .

أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشـــا ولبـــاس التقـــوى ذلـــك خـــير﴾ (٤)

والتورية بقولـــه ﴿ والســـماء بنيناهـــا بـــأيد ﴾.(٥) وفـــى المناسبة بقوله تعـــالى : ﴿ الشـــمس والقمـــر بحســـبان والنجـــم والشجر يســـجدان ﴾.(٦)

وكذلك فعلوا في الطبـــاق والمقابلـــة وتـــأكيد المـــدح بمـــا يشبه الذم وغير ذلك من المحسنات البديعيـــة ، ولـــم يفعلـــوا مـــن ذلك شيئا فى باب حسن التعليـــل .

كما استشهدوا بالأحـــاديث النبويـــة الشـــريفة فـــى بعـــض المحســـنات البديعيـــة ، كقـــول الرســـول ـ ﷺ ـ الكريـــم بـــن الكريم : يوسف بـــن يعقـــوب بـــن إســـحاق بـــن إبراهيـــم " (٧) وهذا فى الاطـــراد .

وفى تأكيـــد المـــدح بما يشـــبه الـــذم بقـــول الرســـول ـ ﷺ ـ :" أنا أفصح العرب بيد أنى مـــن قريـــش "(٨)

---

(٤) سورة الأعراف آية ٢٦ .

(٥) سورة الذاريات آية : ٤٧

(٦) سورة الرحمن آية ٥ ، ٦

(٧) رواه عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ – شرح صحيح البخارى للكرمانى ١٦٠/١٧– طبعة أولى

(٨) الحديث فى الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ٢٢ ـ المطبعة النظامية بالهند

وفى جناس الاشتقاق بقول الرسول ـ ﷺ ـ " الظلم ظلمات يوم القيامة "(١)

وكذلك فعلوا فى باقى المحسنات البديعية ، ولم يرد فى كتبهم أنهم استشهدوا بحديث لرسول الله ـ ﷺ ـ فى باب حسن التعليل .

وكان أول من اتخذ علوم البلاغة أساساً لتفسيره العالم المعتزلى الزمخشرى ، وكان يسمى حسن التعليل " التخييلى "

وقد استشهد به فى بعض مواضع نذكرها مع مناقشتها منها قوله تعالى ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾.(٢)

فذكر الزمخشرى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها ﴾.(٣)

---

(١)رواه عبد الله بن عمر فى كتاب المظالم ـ فتح البارى ٥/٧٣ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٦

(٣) والحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة فى آخره قال أبى هريرة إن شئتم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم " هامش الكشاف للزمخشرى ١/٣٥٧ ـ دار المعرفة

فإن صح فمعنـــاه أن كـــل مولـــود يطمـــع الشـــيطان فـــى إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كان معصومين ، وكذلـــك كـــل مـــن كان فى صغتهما كقوله تعـــالى :﴿ لأغوينـــهم أجمعيـــن إلا عبـــادك منهم المخلصيـــن ﴾.(٤)

واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصويـــر لطمعـــه فيـــه كأنه يمســـــــه ويضـــرب عليـــه ويقـــول : هـــذا ممـــن أغويـــه ونحوه من التخييل قول ابـــن الرومـــى :

لما تؤذن الدنيـــا من صروفـــها

يكون بكاء الطفل ساعـــــة يولـــد

وإلا فما يبكيـــــه منهـــا وإنـــها

لا فسـح مـــما كان فيـــه وأرغـــد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنـــــه

بما سوف يلقى من أذاهـــا يهـــدد

يقول : إن بكاء الطفل حين ولادته لأجـــل مـــا تشـــعر بـــه الدنيا من حوادثها فقط ، وإن لا يكن بكـــاؤه لذلـــك ، فـــأى شـــئ فيها يبكيه ، أو فـــأي شـــئ يبكيـــه منـــها ، وإنـــها : أى الدنيـــا

---

(٤) سورة الحجر آية ٤٠ .

وروى وإنه أى الطفل لأفسح موضعا مما كان فيه من ضيق الرحم وأرغد منه ، وعوده على يبكيه بعيدا وغير سديد ويجوز أنه عائد على فضاء الدنيا المطوم من المقام ، ثم قال إذا أبصرها صرخ كأنه يخوف بما سوف يناله من أذاها قبل حصوله . (١)

وواضح من هذا أن الزمخشرى يقيس الحديث بهذه الأبيات فحسن التعليل الذى يسمى التخييل عنده فى الحديث لا فى الآية ، مع أن ذلك بعيدا أيضا .

ومنها عند قوله تعالى :﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ (٢)

فيقول فى التعليق على هذه الآية ﴿ وإنما يغشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التمثيل والتخييل وقد استشهد على ذلك ببيت له قائلا :

يهاب النوم أن يغشى عيونا

تهابك فهو نفار شرود (٣، ٤)

---

(١) المرجع السابق المكان نفسه .

(٢) سورة الأنفال آية ١١ .

(٣، ٤) أى يخاف النوم أن يغزو عيونا تخافك فالنوم كثير النفار والشرود ، شبهه بحيوان يصح منه الخوف على طريق المكنية ، وقوله هو نفار شرود تفريع للترشيح ونسبة الخوف للعيون مجاز . الكشاف ٢/٢٠٣

ولسنا مع الزمخشرى فى هذا الرأى فهو يريد أن يقول إن النعاس خوفا من الله لا يمكنه أن يغشى عيون المحاربين ، ولذا لا يستطيع إلا إذا أذن الله له بذلك . وهو بهذا لا يتوصل إلى حسن التعليل إلا بأن يتحكم فى إعراب كلمة النعاس مفعولا به ، ثم بأن يستند الخوف إلى النعاس اسنادا مجازيا من قبيل المجاز العقلى ، وهو تكلف وتعنت لا نظير لهما ، ولا سيما أن الآية تقرأ بوجوه ويختلف معناها بحسب اختلاف إعراب ألفاظها ، فهى إذن محتملة لمعان متعددة .

وكما قالوا : أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال وقد رد على ذلك صاحب كتاب الإنتصاف فقال : إن إسناد التخييل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقرنه بأبيات أبن الرومى جراءة وسوء أدب من الزمخشرى إذ أن التخييل الذى هو حسن التعليل كما ذكر لا يليق أن يصدر منه ـ ﷺ ولو كان معنى ما قاله صحيحا لكانت هذه العبارات واجبا أن تجتنب ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على

بعد أن يكون تمثيلاً وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل ، وارتكاب الهوى الوبيل " (١)

وقال عن الآية الثانية : أن الوجه الذى خرج عليه الزمخشرى هذه الآية وجه حسن بشرط إسقاط لفظ التخييل " (٢)

ومعنى ذلك أن صاحب الإنتصاف لا يرضى مطلقا عن إدعاء وجود حسن التعليل فى القرآن الكريم ، وهو الرأى الأرجح والأقرب إلى الصواب .

ويمكن الرد على ما قاله أن هناك آية ورد ذكرها عند الكلام عن حسن التعليل فى شروح التلخيص . (٣)

وهذه الآية قوله تعالى : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ﴾.(٤)

وهى على لسان سليمان عليه السلام ، وقد جئ بهذه الآية فى هذا المكان لأنه قيل أن النبى ـ ﷺ ـ قد اعترضه

---

(١) الانتصاف على الكشاف ١/ ٣٥٦

(٢) الانتصاف على الكشاف ١/٢٠٣

(٣)انظر شروح التلخيص ٤/ ٣٧٤

(٤) سورة ص آية ٣٥

عفريت وهو يصلى فأطلقه حتى لا يظن أن دعـــوة ســليمان لـم تستجب ولا يخفى أن إطلاق العفريت ليـــس مـــن حســـن التعليـــل فى الآية ، ولا فـــى الحديـــث النبـــوى ، إذ لـــم يذكـــر المصنـــف أحاديث فى هذا الصـــدد .

وواضح أن شراح التلخيـــص استشـــهدوا بالآيـــة كحســـن تعليل للفعل نفســـه .

وقد انتهى الكلام عند شـــراح التلخيـــص بأنـــه لا حســـن تعليل فى القرآن ولا الحديـــث ولا الفعـــل .(١)

****

ثانياً (حسن التعليل) فى شعر صـــدر الإســـلام :

اتجه الشـــعراء فـــى شـــعرهم فـــى صـــدر الإســـلام إلـــى الأغراض الدينية لتثبيت دعـــائم الإســـلام ، والمســـائل الدينيـــة لا تحتمل حسن التعليل ، لأنه لا يصح أداة للإقنـــاع لاعتمـــاده علـــى التخييل والادعاء ، لذلك فقد خلا الشعر فـــى صـــدر الإســـلام مـــن حسن التعليل الـــذى يشـــترط فيـــه خلـــوه مـــن الشـــرط والشـــك واليقيـــن .

---

(١) يراجع شروح التلخيص ٤/٣٧٤ .

ويمكن الرد على من قال أن حسن التعليل جاء فى شعر عصر صدر الإسلام مستدلاً بأن النجاشى الشاعر هجا بنى العجلان رهط بن مقبل فقال :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة

فعادى بنى العجلان رهط بن مقبل

قبيلته لا يخفرون بذمة

ولا يظلمون الناس حبة خردل

ولا يردون الماء إلا عشية

إذا صدر الوارد عن كل منهل

وما سمى العجلان إلا لقوله

خذ القعب واحلب أيها العبد وأعجل(١)

فبنى العجلان يعتقدون أنه إنما سمى بذلك لتعجيله قرى الضيف ، ولكن الشاعر أدعى علة أخرى هى قوله العجلان " خذا القَعْب " أى لبخله وتقتيره ، فالشاهد إذن فى البيت الأخير .

---

(١) الأبيات فى العمدة لابن رشيق ٥٢/١ - دار الجيل بيروت .

إلا أن الصيغة التى استعملها ، والمعنى المستقل للبيت لا يعطى البخل ولا يفيده ، وليس هناك نص فى البيت يدل على ذلك ، فالبيت يحتمل الوصف بالبخل بتعجيل الحليب وإخفائه ، ومع أن البيت لا يعطى معنى البخل إلا بارتباطه بالقصة والقصيدة ، إلا أن دلالته على الكرم أقرب وأطرق إلى ذهن السامع .

واحتمال البيت للمعنيين يّسقط الاستدلال به وليس هناك مجال للاعتراض إذا تركنا القصيدة واتخذنا البيت وحده للاستدلال به ،فوحده الشعر العربى إنما هى البيت مستقلاً بنفسه لا القصيدة بأكملها ، فقد عد العلماء من عيوب الشعر كون بعض المعنى فى بيت وبعضه فى البيت الآخر وقد رأى معظم نقاد العرب أن البيت فى القصيدة ينبغى أن يستقل بمعناه وإلا يحتاج إلى غيره ليستكمل هذا المعنى ، وعدوا من العيوب فى الشعر أن يحتاج البيت إلى غيره ليتم معناه ،وسمى قدامه البيت المحتاج فى إكمال معناه إلى غيره مبتوراً .(٢)

---

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ـ ت : ٣١٠ هـ ، ص ٨٧ ـ مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة : ١٣٠٢هـ ، الموشح فى مأخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى ، ت ٣٨٤هـ ، ص ٨٧ ـ المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ هـ .

وعلى كل فإن البيت الأخير إنما هو بذرة من البذور التى أينعت فيما بعد فكان عنها حسن التعليل إلاّ أنه لا يصح الاستشهاد به على وجود حسن التعليل فى صدر الإسلام .

وقد جاء فى قوله مجنون ليلى:

وإنى لأستغشى وما بى نعسة

لعل خيالا منك يلقى خياليا

وعلق على ذلك الخطيب القزوينى بقوله : " وهذا غير بعيد أن يكون أيضا من هذا الضرب إلا أنه لا يبلغ فى الغرابة والبعد عن العادة ذلك المبلغ ، فإنه قد يتصور أن يريد المغرم الميتم إذا بَعُد عهده بحبيبه أن يراه فى المنام فيريد النوم لذلك خاصة " .(١)

فلم يدخل هذا صريحا فى حسن التعليل لما فيه من الاحتمال الممكن ولم يستبعد أن ينام العاشق قصد رؤية خيال محبوبته ولكن أين هذا من قول أبى طالب المأمونى فى مدح بعض الوزراء ببخارى . (٢)

مغرم بالثناء صب يكسب المجد يهتز للسماح ارتياحاً

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواحاً

---

(١) الايضاح للخطيب القزوينى ضمن شروح التلخيص ، ٣٧٨/٤ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ، ٣٥٧/٤ ـ ١٥٩ ، وانظر أسرار البلاغة ٢٩٧ .

المبحث الثالث

أطوار " حسن التعليل "

مر حسن التعليل بأطوار كثيرة حتى صار على هذه الصورة الجميلة الرائعة التى نرى بها أمثلته وشواهده

والأطوار التى مر بها هى :

١ــ حسن الاعتذار : وهو يستلزم التماس حجج نظرية تثبت براءة مرتكب النقيصة وأن لم يكن بريئا ، من ذلك اعتذار دريد بن الصمة عن اشتراكه فى حرب لم تكن له رأى فيها حيث يقول :

وهل أنا إلا من غزية أن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومن ذلك أيضاً اعتذار الفرزدق حينما نبا السيف فى يده إذ هم بقتل الأسير فقال :

لم ينب سيفى عن رعب ولا دهش

عن الأسير ولكن آخر القدر

وحسن الاعتذار هـــو خـــام حســـن التعليـــل ، وقـــد كـــان موجوداً فى العصر الجـــاهلى .[١]

٢ــ حسن التعليل المعلق وهو : أن يدعـــى الشـــاعر علـــة غير حقيقية ولكن نفســـه وضمـــيره لا يســـاعدانه علـــى الكـــذب فيحتال لذلك بحيلة لطيفة وهى : إدخال الشـــرط ومـــا يفيـــده مـــن التعليق ، كقول النابغـــة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقـــهم

عصائب طير تهتـــــدى بعصـــائب

جوانح قـــــد أيقن أن قبيلـــة

إذا ما التقى الجمعـــان أول غـــالب

٣ــ حسن التعليل الظنى : وهو ما دخله الشـــك والريـــب كقول جريـــر :

إذا غضبت عليك بنو تميـــم

حسبت الناس كلـــهم غضابـــا

---

(١) راجع اعتذارات النابغة فى العمدة ، لابن رشيق ١٧٦/٢ ـدار الجيل بيروت والنابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ١٦٥ مطبعة نهضة مصر بالفجالة .

٤ـ حسن التعليل الاحتمالي : وهو الذى لا تكون عبارته نصاً فى الموضوع

كقول النجاشى :

وما سمى العجلان إلا لقوله

خذ القعب واحلب أيها العبدُ واعجل

وهذه الأنواع هى البذور والخامات الأولى لحسن التعليل ولكنها ليست به .

الفصل الثانى

حسن التعليل بين القدماء والمتأخرين

ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول :

حسن التعليل عند القدماء

المبحث الثانى :

حسن التعليل عند المتأخرين

المبحث الأول

حسن التعليل عند القدماء

مما سبق يتضح لنا أن أول من سبق إلى حسن التعليل واستخدمه بمعناه المعروف الآن هو بشار بن برد ١٦٨هـ زعيم البديعيين فى عهد المحدثين .

وتبعه مسلم بن الوليد ت ٢٠٨هـ ـ وكان ذلك فى القرن الثانى الهجرى الذى اشتركت فيه الدولتان الأموية والعباسية ، فكان للأولى ثلثه ، والثانية ثلثاه .

ففى عصر المأمون كان لبشار خمسة أصدقاء مات منهم أربعة وبقى واحد غرق فى النهر فرثاهم بشار بقوله :

يا أبن موسى فقد الحبيب على العـ

ـين قذاه وفى الفؤاد سقام

كيف يصفو لى المقام وحيداً

والأخلاء فى المقابر هام

نفستهـــم على أم المنايـــا

فأنـــا متهم بعنـــف فنـــاموا [١]

فبشار ينزع إلى الخيال ، ولا ينظـر إلـى الواقـع ، فيعلـل موت أصدقائه بطة خيالية إدعائية غير واقعيـة فيقـول : نفسـتم على أم المنايا [٢] ولم ترنى أهـلا لصداقتـهم .

وقول مسلم بن الوليـد :

يا واشيا حسنت فينا إسـاءته

نجى جذارك انسانى مـن الغـرق [٣]

يريد إثبات إحسان الواشـى وهـو صفـه ممكنـة معللـة بعلة غير مفهومة ، وهى أن حـذاره منـه كـان سـببا لسـلامة إنسان عينه من الغرق فى الدمـوع .

---

(١) نفستهم : نفس عليه الشيء نفاسه لم ير إهلاكه : لسان العرب ٤٥٠١/٦ ، والمعنى أن الموت لم ير الشاعر أهلا لصداقة هؤلاء الرجال فاختطفهم وتركه وحيداً ، والأبيات فى ديوانه ، ط: لجنة التأليف والترجمة . .

(٢)الصبغ البديعى د/ أحمد إبراهيم موسى : ص٦٣ ، ٦٤ نشر دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م .

(٣) ذيل الديوان ص ٣٢٨ ط : دار المعارف . طبقات الشعراء ص ١١١ .

المبحث الثانى

حسن التعليل عند المتأخرين

أمـا حســن التعليـل بمعنـاه المعــروف الآن لــدى البلاغييـن .

فهو لغة : مأخوذ من الفعـل علـل " يقـال عللـه بطعـام وحديث شغله بها وتلـهى "(٤)

وهو : " تفعيل من قولهم علل مـا شـيته إذا سـقاها مـرة بعد مرة ، وسمى المـرض علـة لأنـه سـبب فـى تغـير حـال الإنسان وفساد صحتـه "(٥)

واصطلاحـاً : " أن يدعـى لوصـف علـة مناسـبة لـه باعتباره لطيف غـير حقيقـي . (٦)

وهذا هو الاختراع والإبداع ، فالشاعر يتجـرد مـن عـالم الواقع الذى يجعل لكل شئ سببا منطقيـا معقـولاً ويتخلـص مـن قيود الصدق محلقا فى سماء الخيال هابطاً إلـى سلسـبيل الكـذب

---

(٤) لسان العرب لابن منظور ٤/٣٨٠ ، دار المعارف ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، ٣١٢ دار المعرفه .

(٥) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوى ١٣٨/٣ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

(٦) الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ٦٨/٦ ـ شرح وتعليق د/ محمد طبعة : صبيح القاهرة ١٩٩٠ م .

ليغترف منه مازجاً بين الخيال البارع ، والكـــذب الرائـــع ، خالقـــا صورة من أجمل الصور الذهبية التى خفـــف فيـــها الخيـــال مـــن غلواء الكذب حتى يحاول أن تخيل أن هـــذا الكـــذب مبـــاح ، كمـــا خفف الكذب فى هذه الصور الرائعة مـــن غلـــواء الخيـــال ، حتـــى خيل لك ان هذا الكـــذب مبـــاح ، كمـــا خفـــف الكـــذب فـــى هـــذه الصور الرائعة من غلواء الخيـــال ، حتـــى خيـــل لـــك أن تجعلـــه حقيقية مسلما بها فيرتاح العقـــل بذلـــك بعـــد تحـــير ، وتطمئـــن النفس بعد تخبط ، ويهـــدأ البال بعـــد اضـــطراب ، وهـــذه هـــى البلاغـــة الموجـــزة المعجـــزة فـــى أبـــهى صورهـــا ، وأســـمى معانيـــها .

ولنتأمل قول الصلاح الأربلـــى :-

ما قصر الغيث عن مصر وتربتـــها

طبعا ولكن تعداكم مـــن الخجـــل [١]

فالشاعر أنكـــر العلـــة الحقيقيـــة لـــنزول المطـــر ، وهـــى الأمور الطبيعية الجغرافية ، والتمس لذلك علـــة إدعائيـــة لطيفـــة مناسبة وهى أن الممـــدوح يغمرهـــا بخيراتـــه وفضلـــه وجـــوده

---

(١) معاهد التنصيص ٣/٧٣

وعطائه والمطر لا يستطيع مجاراتـــه فـــى الكـــرم فيمتنـــع عـــن النزول خجلا لا طمعـــا .

وانظر إلى ذلك الخيـــال الرائـــع ، والتصويـــر الطريـــف ، والتعليل البديـــع .

فاللغة إنما وضعـــت فـــى الأصـــل للتعبـــير عـــن الحقـــائق والمسائل العقلية فـــإذا مـــا أراد المتكلـــم اتخاذهـــا لأداء مـــا فـــى نفسه من الخيال والتعليل شعر بأنـــها دون مـــا فـــى باطنـــه مـــن قوة العاطفة ، وحرارة الشـــعور لـــذا يلجـــأ الأديـــب أو الشـــاعر إلى الخيال ليزداد المعنى قوة وتعبـــيراً وجمـــالاً .

ولنقرأ قول ابن رشيق القـــيروانى

سألت الأرض : لم جعلت مصلـــى

ولم كانت لنا طـــهراً وطيبـــا

فقالت غير ناطقة لأنـــى

حويت لكل إنســـان حبيبـــا (٢)

فالشـــاعر يزعـــم أن الأرض جعلـــت لنـــا طـــهرا وطيبـــا ، لأنها تضم لكل إنسان حبيبا وهـــذا كـــذب لا شـــك . فليـــس ضـــم

---

(٢) البيتان فى الطراز ١٣٩/٣ ، تحرير التحبير لأبى الأصبع المصرى ص ٣١٠

الأرض لأحبائنا هو علة طهرها ، وإنما العلة فى ذلك تفصيل النبى ـ ﷺ ـ واختصاصه بمزايا لم يختص بها أحد غيره .

ومع أن الكذب واضحاً جلياً إلا أننا نرى ما يخفه ويذهب بأثره من النفس ، وهو ذلك الخيال الرائع الجميل والقدرة الفائقة على اختراع المعانى .

ولعل أبا تمام هو الذى فتح لابن هانى باب هذا المعنى ونبهه على استخراج هذه العلة بقوله :

رُبا شفعت ريح الصَّبا بنسيمها

إلى الغيث حتى جادها وهو هامع

كأن السحاب الغرغريين تحتها

حبيبا فما ترقا لهن مدامع

فقد جعل دوام مطر السحاب على هذه الربا إنما كان بمنزلة البكاء من ثاكل دفن محبوباً له ، فهو دائم البكاء على قبره ، فكأنه جعل العلة فى دوام السقيا كون الحبيب تحت تلك الأرض المسقية .(١)

---

(١) تحرير التحبير ٣١١ .

وكقول أبى القاسم بن هـانئ الأندلسـى :

ولو لم تصافح رجلها صفحة الـثرى

لما كنت أدرى علـة التيمـم (٢)

فقد جعل علة التيمم بمصافحة رجـل محبـو بتـه صفحـة الثرى وهذا من غلو ابـن هـانئ لأن علـة التيمـم واردة بنـص كتاب الله وسنة رسـوله ـ ﷺ ـ أمـا النـص القرآنـى فقولـه تعالى : " ﴿ فتيمموا صعيـداً طيبـا ﴾.(٣)

وأما نص السنة فقـول الرسـول ـ ﷺ ـ " وجعلـت لـى الأرض مسجداً وطـهوراً " (٤)

وحسـن التعليـل بمعنـاه المعـروف فـى كتـب البلاغيين أربعة أضـرب (٥)

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان ٢٢٧ .

(٢) سورة المائدة آية ٦

(٣) الجامع الصغير لجلال الدين السيوطى ٣٥٩/١ ـ مصر ١٢٨٦ هـ .

(٤) لقد من شروح التلخيص ٣٧٣/٤ ، الإشارات والتنبيهات فى علوم البلاغة وتصنيف محمد بن على الجرجانى ت ٧٢٩ هـ ، تحقيق د/ عبد القادر حسين ص ٢٨١ وما بعدها ط نهضة مصر ـ تحرير التحبير لابن ابى الأصبع المصرى ٣٠٩ وما بعدها

١ــ إدعاء علة غير حقيقية لوصفت ثـــابت لا تعـرف لـــه علة فى العـــادة .

كقول المتنبـــى :-

لم تحك نائلك السحاب وإنمـــا

حمت به قصبيـــها الرخصـــاء

فنزول المطر لا تظهر له علـــة فـــى العـــادة علـــى الرغـــم من وجود العلة العلمية لنزولـــه إلا أنـــها غـــير ملحوظـــة علـــى حسب العادة عند الناس العلميـــة ولكـــن الشـــاعر التمـــس لذلـــك علة ، فعلله بالحمى التى أصابت السحاب من أجـــل غيرتـــها مـــن كرم الممـــدوح .

وكقوله أبى تمـــام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنـــى

فالسيل حرب للمكـــان العـ ـى [١]

فـــ " علل عدم إصابة الغنى الكريـــم بالبـــاس علـــى عـــدم إصابة السيل المكـــان العـــالى كـــالطود الشـــيم ، مـــن جهـــة أن

---

(١) البيت فى ديوانه فى قصيدة يمدح فيها الحسن بن رجاء ٣/٧٧ ط : دار المعارف

الكريم لاتصافه بعلو القـــدر كالمكـــان العـــالى ، والغنـــى لحاجـــة الخلق إليه كالســـيل .[٢]

وقول ابى العباس الضبـــى :

لا تركنـــــــن إلى الفـــراق

وإن سكنت إلـــى العنـــاق

فالشمس عنـــــد غروبـــها

تصفر من فـــرق الفـــراق [٣]

فـــ " ادعـــى لتعظيـــم شـــأن الفـــراق أن مـــا يـــرى مـــن الصفرة فى الشمس حين يـــروق نورهـــا بدنوهـــا مـــن الأرض ،إنما هو لأنها تفـــارق الأفـــق الـــذى كانـــت فيـــه ، أو النـــاس الذين طلـــعت عليهم ، وأنســـت بـــهم ، وأنســـوا بـــها وســـرتهم رؤيتـــها " .[٤]

فاصفرار الشمس عند الغـــروب لا تظـــهر لـــه فـــى العـــادة علة يسأل الناس عنـــها .

---

(٢) أسرار البلاغة ص ٢١٤

(١) يتيمة الدهر ٣/٢٦٥ .

(٢) أسرار البلاغة ٢٧٨، ٢٧٩

ولكن الشاعر التمس لذلك علة طريفة وهى أن اصفرار لون الشمس يرجع إلى خوفها من الفراق .

وكقول ابن نباته فى صفة فرس :-

وأدهم يستمد الليل منه
وتطلع بين عينيه الثريا

سرى خلف الصبا يطير مشيا
ويطوى خلفه الأفلاك طيا

فلما خاف وشك الفوت منه
تشبث بالقوائم و المحيا

وكقول أبى هلال العسكرى

زعم البنفسج أنه كعذاره
حسداً فسلوا من قفاه لسانه

لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به
قلشدما رفع البنفسج شأنه (١، ٢)

---

(١) ديوانه المجموع ص ١٥٧ ، جمع محسن عياض - بغداد ، وانظر معاهد التنصيص ٣/٨٥ .

(٢) ومع استعمال أبى هلال وابن رشيق لحسن التعليل فى شعرهم ، وجريانه على ألسنتهم إلا أنهما لم يتحدثا عنه فى كتابيهما [illegible] الصناعتين والعمدة .

ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى فـــى الرثـــاء :

وما كلفه البدر المنير قديمـــه

ولكنها فى وجهه أثـــر اللطـــم

فالشاعر يـــرى أن الكلفـــة أى الكـــدرة التـــى تبـــدو علـــى سطح القمر قد حدثت مـــن اللطـــم والبكـــاء علـــى الميـــت الـــذى يرثيه الشاعر . فالبقع التـــى تظـــهر فـــى البـــدر لا ترجـــع إلـــى أسباب طبيعية وإنما هى من أثر اللطم علـــى فـــراق المرثـــى.

ومن ذلك قول الشاعر يصف غلاما تحت حنكه خال:-

حبذا الخال كائنا منه بين الـــــ

خد والجيد رقيـــه وحـــذاراً

رام تقبيلـــــه اختلاســـاً ولكـــن

خاف من سيف لحظـــــه فتـــوارى (٣)

فظهور الخال تحت الحنك ليـــس لـــه علـــة فـــى العـــادة ، ولكن الشاعرعلله بعلـــة مناســـبة طريفـــة فقـــال ، إن الخـــال ود تقبيل الغلام خلسة ولكن خشى من ســـيف لحظـــة فتـــوارى تحـــت الحنك

(١) الأبيات فى معاهد التنصيص ٣/٧٧ ـط : دار الكتب

ومن ذلك قول جمال الدين الحلـــى :-

ولما نضا وجه الربيع نقابـــه

وفاحت بأطراف الريـــاض النسـائم

فطارت عقول الطير لما رأيتـــه

وقد بهتت من بينـــهن الحمـائم

خشين جنونا بالرياض وحســـنها

فرحن وفى أعناقـــهن التمـائم . (٢)

٢- إدعاء علة غير حقيقيـــة لوصـف ثـابت تعـرف لـه علة فى العـادة .

كقول أبى الطيب المتنبـــى :-

ما به قتل أعـــــاديه ولكـــن

يتقى إخلاف ما ترجـــو الذئـاب (١)

---

(١) البيت من قصيدة للمتنبى فى مدح بدر بن عمار مطلعها :

إنما بدر بن عمار سحاب هطل فيه ثواب وعقاب

شرح ديوانه للكعبرى ١/ ١٤٤ ط: التأليف ، والأسرار ٣٣٧

وإن قتل الملوك أعداءهم فى العادة لإرادة هلاكهم ، وأن يدفعوا مضارهم عن أنفسهم ، حتى يصفو لهم ملكهم من منازعتهم ، لا لما ادعاه من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبته أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه ، لما علم أنه لما غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم وهذا مبالغة فى وصفه بالجود ، ويتضمن المبالغة فى وصفه بالشجاعة على وجه تخييلى ، أى تناهى فى الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم ، فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه ، وفيه نوع آخر من المدح ، وهو أنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق .(٢)

وكقول ابن المعتز :

صدت شرير وأزمعت هجرى

وصعت ضمائرها إلى الغدر

قالت كبرت وشبت قلت لها

هذا غبار وقائع الدهر

---

(٢) الإيضاح للخطيب القزوينى ص ٢٠٩ ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان .

فـ " أنكر أن يكون الذى بدا به شيبا ، ورأى الاعتصام بالجحد أحصر طريقا إلى نفى العيب وقطع الخصومة ، ولم يسلك الطريق العامية فيثبت المشيب ، ثم يمنع العائب أن يعيب ، ويريه الخطأ فى عيبه ، ويلزمه المناقضة فى مذهبه .(١)

وكقول أبى طالب المأمونى يمدح بعض الوزراء ببخارى .(٢)

مغرم بالثناء صب بكسب الـــ

مجد يهتز للسماح ارتياحاً

لا يذوق الإخفاء إلا رجاء

أن يرى طيف مستميح رواحاً

فالنوم له علة معروفة لم يردها الشاعر ، ملتمسا لذلك علة أخرى طريفة وهى أن الممدوح يلبى رغبات جميع طالبى الحاجات فى اليقظة ، حتى إذا لم يبق طالب معروف يراه

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨٣

(٢) البيتان فى قصيدة طويلة له فى يتيمة الدهر ٤/١٥٧-١٥٩ ، أسرار البلاغة ص ٢٩٧ ـ تحقيق محمد محمود شاكر .

فى اليقظـــة فإنه ينام علـــة يـــرى طيـــف ســـائل يلبـــى حاجتـــه

وكقول الشـــاعر :

أتتنى تؤنـــبنى بالبكاء فأهلا بها وبتأنيبها

تقول وفى قولـــها حشمة أتبكى بعين ترانـــى بـــها

فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدمـــــوع بتأديبـــها(٢)

فالمعروف أن العلة الحقيقية للبكاء هـــى فـــراق المحبـــوب أو وقوع شئ مكروه ولكن الشـــاعر ادعـــى لذلـــك علـــة أدبيـــة طريفة ، وهى أنه يـــؤدب عينيـــه بالبكـــاء والدمـــوع إذا نظـــرت واستحسنت غير حبيبتـــه .

وكقول الشـــاعر :ـ

بكت فقدك الدنيا قديما بدمعـــها

فكان لها فى سالف الدهـــر طوفـــان

فالشـــاعر يرثـــى إنســـانا فيقـــول لـــه : إن الدنيـــا بكـــت بغزارة على فراقك ، ومن كثرة الدمـــوع حـــدث الطوفـــان الـــذى أغرق الدنيا زمن نوح عليه الســـلام .

---

(١) الأبيات فى معاهد التنصيص ٣/٨٥ بلا نسبة لأحد ، وكذلك فى أسرار البلاغة بلا نسبة لأحد ص٣٠ .

وهو قد التمس علة أدبية طريفة للطوفان وهى غزارة الدموع ، وكثرة البكاء على الميت الذى يرثيه الشاعر .

والمعروف أن العلة الحقيقية للطوفان هى إهلاك الكافرين ، وقد نشأ الطوفان من المطر الغزير ومن فيضان البحار والأنهار ، ومن خروج المياه الجوفية .

ومن أمثلة هذا النوع أيضا قول أبو الحسن النويختى :- (١)

لا يطلع البدر إلا من تشوقه

إليك حتى يواتى وجهك النضرا

فطلوع القمر علة حقيقية وهى إضاءة الدنيا وتبديد ظلامها ، ومعرفة السنين والحساب ، ولكن الشاعر ترك هذه العلة ، والتمس لطلوعه علة طريفة وهى اشتياقه لرؤية الممدوح والتمتع بمشاهدة وجهه المشرق على سبيل المبالغة والادعاء .

وكقول ابن هانئ الأندلسى :- (٢)

---

(١) البيت فى معاهد التنصيص ٣/٧٤ .

(٢) تنبيه المعانى فى شرح بن هانئ لابن هانئ الأندلسى المغربى ـ حيدر أباد الدكن ـ الهند ـ ١٣٥٢ هـ .

لو لم تصافح رجلها صفحة الـــثرى

لما كنت ادرى علـــة للتيمـــم

فعلة التيمم معروفة من كتـــاب الله وســـنة رســـوله لكـــن الشاعر أدعى أن العلة فى ذلـــك أن رجـــل المحبوبـــة بملامســـتها له أكسبته طهارة وشرفا ، ولذلك أمرنـــا بالتطـــهير بـــه ، وهـــذا غلو مذمـــوم .

وكقول ابن رشيق القـــيروانى :-

سالت الأرض لم جعلت مصلـــى

ولم كنت لنا طـــهراً وطيبـــا

فقالت غير ناطقـــــــة لأنـــى

حويت لكـــل إنســـانى حبيبـــا

فقد جعل الكون الأرض مســـجدا وطـــهورا علـــة مناســـبة لطيفة وهى أنها حوت فى باطنها لكل إنســـان حبيـــا .

٣ـــ <u>إدعاء علة غير حقيقية لوصـــف غـــير ثـــابت ولكـــن ممكن</u> .

كقول مسلم بن الوليـــد : -[١]

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنســان مــن الغــرق

" أى إنما حسنت لأجل أنـــها أوجبـت حـذارى منـك فلـم أبك لئلا تشعر بما لدى ، ولما تركت البكـــاء نجـا إنســان عينـى مــن الغــرق بــالدموع ، فقـد أوجبـت إســاءتك نجـاتى فـــى إنسان عينـــى " [٢]

فاستحسان إساءة الواشـــى ممكـن ، ولكـن لمـا خـالف الناس فيه أعقبه بذكر ســـببه ، وهـو أن حـذاره مـن الواشـى منعة من البكاء ، فسلم إنسان عينية من الغــرق فــى الدمــوع .

وكقول الشــاعر

ولقد هممت بقتلها من حبـــها

كيما تكون خصيمتى يـــوم الحشــر

حتى يطول على الصراط وقوفنا

فيلـــذ عينى من لذيـــذ المنـــظر

---

(١) البيت فى ذيل الديوان ص ٣٢٨ ط: دار المعارف ، وفى طبقات الشعراء للجمحى ١١١/١ ط: السعادة .

(٢) شروح التلخيص ٣٧٩/٤ .

فقد ادى الشاعر أمرا غـــير ثـــابت ولا معتـــاد وهـــو هـــم العاشـــق بقتـــل محبوبتـــه ، وعللـــه بطـــول الوقـــوف معـــها للمخاصمة يوم المحشر على الصراط فتلتذ عينـــه بـــالنظر إليـــها

٤ــ <u>إدعاء علة لأمر غير ثـــابت وغـــير ممكـــن الحـــدوث.</u>

<u>كقول الشـــاعر</u> . (٣)

لو لم تكن نية الجوزاء خدمتـــه

لما رأيت عليها عقـــد منتطـــق

فالشاعر أراد أن يثبت وصفـــاً غـــير ممكـــن ، وهـــو نيـــة الجوزاء خدمة الممدوح ، وجعل الانتطاق علـــة لـــه .

يقول الإمام عبد القاهر الجرجـــانى :

" الجوزاء منطوقـــة علـــى نيـــة خدمـــة الممـــدوح ، هـــى صفة غير ممكنة معللة بعلة معهودة ، وهى عقـــد المنطقـــة فـــى وسطها فإن ذلك هو المعهود مـــن الخـــدام . (٤)

فغير ممكن ان تنـــوى الجـــوزاء خدمـــة الممـــدوح ، وقـــد قصد الشاعر إثباتها وجعل الدليل شـــدها النطـــاق .

ومن الملاحظ ان كتب البلاغة التـــى تحدثـــت عـــن حســـن التعليل استشهدت جميعها بـــالبيت الســـابق وذلـــك يجعلنـــا نســـلم بأن حسن التعليل قد وجد قديما عند الأمـــة الفارســـية .

---

(١) هو بيت فارسى ترجمته ما قيل .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٧٨ .

ما يلحق بحسن التعليل

اتضح مما سبق أن العلة التى ادعيت فى حسن التعليل على سبيل اليقين والإصرار .

أما إذا كانت العلة المدعاة على سبيل الشك وعدم اليقين فإن ذلك ما يلحق بحسن التعليل ، كقول أبى الطيب المتنبى :

ما زلت احذر من وداعك جاهداً

حتى اغتدى أسفي على التوديع

رجل العزاء برحلتي فكأنى

اتبعته الأنفاس للتشييع

فـ " علة تصعيد الأنفاس فى العادة هى التحسر والتأسف لا ما جوز أن يكون إياه ، والمعنى رحل عنى العزاء بارتحالي عنك أى معه أو بسببه فكأنه لما كان الصدر محل الصبر ، وكانت الأنفاس تتصعد منه أيضا صار العزاء

والنفس الصعداء كأنهما نزيلان ، فلمـــا رحـــل ذلـــك كـــان حقـــا على هذا أن يشيعه قضاء لحـــق صاحبـــة . (١)

وكقول أبى تمـــام : -

ربا أشفعت ريح الصبا لرياضـــها

إلى المزن حتى جادها وهـــو هـــامع

كأن السحاب الغرغيين تحتـــها

حبيبـــا فمن ترقـــا لـــهن مدامـــع (٢)

فالشاعر علل على سبيل الشـــك " كـــأن الســـحاب " نـــزول المطر من السحاب بأن السحب قد غيبت حبيبـــا لـــها تحـــت تلـــك الربا فهى دائمة البكاء عليـــه ، ولمـــا كـــانت هـــذه العلـــة علـــى سبيل الشك الحقت بحسب التعليـــل

---

(١) الايضاح ٣٨٣/٤ ضمن شروح التلخيص .

(٢) الربا جمع ربوة وهى التل المرتفع من الأرض "أساس البلاغة ١٥٣ ، الصبا : ريح تهب من الشرق ، لسان العرب ٢٣٨٥/٤ ، المزن : السحاب الأبيض مقاييس اللغة ٣١٨/٥ جادة بمعنى أمطرها ، أساس البلاغة ٦٨ ـ الهامع السائل بكثرة مقاييس اللغة ٦٧/٦ ، الغر : جمع غراء وهى السحاب الماطرة الغزيرة أساس البلاغة ٣٢٢ ، ترقا وأصله ترقا معنى يجف و خففت الهمزة ، أساس البلاغة ص ١٧٥ .

حسن التعليل فى النثر

ينقسم النثر إلى قسمين علمـــى وأدبـــى .

وحســـن التعليـــل لا يدخـــل الأول إطلاقـــاً لاعتمـــاده علـــى قوانين المنطـــق ، ولأن حســـن التعليـــل لا يصلـــح أداة للإقنـــاع بحال بخلاف النثر الأدبـــى ، فـــإن "حســـن التعليـــل " يدخلـــه لأن أكبر مصور له هو التخييل وليـــس هـــذا ســـببا أو علـــة واقعيـــة مطابقة للواقـــع .

وإنما يلجأ الأدبـــــاء إلـــى ذلـــك ليوقـــظ خيـــال القـــارئ ويثير وجـــــدان الســـامع وعاطفتـــه ، ويدخلـــوا الســـرور بتلـــك العلل والأســـاليب المستطرقة ، وهذه الأشـــياء خاصـــة بـــالتعليل الأدبى .

فقد ورد أن بشار بن برد قال : " الحمـــد لله الـــذى ذهـــب ببصرى ، فقيل له ولما يـــا أبـــا معـــاذ ؟ فقـــال " لئـــلا أرى مـــا أبغض "

وذلك " حســـن التعليـــل " بـــلا شـــك ـ ورد نـــثرا علـــى لسانه فى القرن الثانى الـــهجرى .

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة القصيرة مع المحسن البديعى الطريف حسن التعليل يتضح لنا الآتى

ـ أن حسن التعليل مبالغة وخيال يخفف كل منهما من غلواء صاحبه

ـ أن هذا المحسن البديعى لم يوجد فى العصر الجاهلى

ـ أن القرآن الكريم والحديث الشريف قد خلوا من هذا المحسن لأن معناه لا يتفق مع ما يتحليان به من الصدق والإخبار عن الواقع .

ـ مر حسن التعليل بأطوار ومراحل حتى وصل لنا بمعناه الاصطلاحي المعروف .

ـ أن حسن التعليل قد نشأ فى القرن الثانى الهجرى ، وأول من نطق به بمعناه الاصطلاحي هو بشار بن برد ٧٦ ـ ١٦٧هـ

ـ أن حسن التعليل لا يدخل فـــى النـــثر العلمـــى ، ويدخـــل فى النثر الأدبى فقد ورد على لسان بشار بـــن بـــرد فـــى القـــرن الثانى الهجرى أيضـــا .

وصلـــى الله علـــى ســـيدنا محمـــد وعلـــى آلـــه وصحبـــه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمـــد لله رب العـــالمين .

أهم مصادر البحث ومراجعة

ـ أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق / محمود محمد شاكر مطبعة المدني ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م

ـ أسس النقد الأدبي عند العرب ـ تأليف أحمد أحمد بدوي دار نهضة مصر .

ـ الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، تصنيف محمد بن علي بن محمد الجرجاني ت ٧٢٩هـ ـ تحقيق د / عبد القادر حسين دار نهضة مصر .

ـ الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ـ دار الجيل بيروت لبنان

ـ البديع في ضوء أساليب القرآن د / عبد الفتاح لاشين الطبعة الأولى ـ ١٩٧٩ـ دار المعارف .

ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع المصري ٥٨٥ـ ٦٥٤هـ تقديم وتحقيق د/ حفني محمد شرف ـ يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة

ـ تنبيه المعاني في شرح ديوان ابن هانئ لمحمد بن هانئ الأندلسي طبعة ١٣٥٢هـ ط حيدر آباد

ـ ديوان بشار لجنة التأليف والترجمة والنشر . وانشر

ـ ديوان أبو تمام ـ دار المعارف .

ـ ديوان ابن الرومي ـ دار الكتب

ـ ديوان المتنبي ـ شرح العكبري ـ لجنة التأليف

ـ شرح صحيح البخارى للكرمانى ـ الطبعـــة الأولـــى

ـ شروح التلخيص للخطيـــب وآخريـــن ـ دار الســـرور ـ بـــيروت ـ لبنـــان .

ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ت ٢٧٦هـــ ط عيســـى الحلبـــى .

ـ الصبغ البديعى د/ أحمد إبراهيـــم موســـى ـ دار الكتـــاب العربـــى بالقـــاهرة ١٩٦٩م.

ـ الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٣٩٥هـــ تحقيـــق مفيـــد قميحـــة بيروت ـ لبنان ـ دار الكتـــب العلميـــة ط ١٣٢٠هـــ ـ ١٩٧١م.

ـ طبقـــات الشـــعر لمحمـــد بـــن ســـلام الجمحـــى ت ٢٢١هـــ ط السعادة

ـ الطـــراز المتضمـــن لأســـرار البلاغـــة وعلـــوم حقـــائق الإعجـــاز للعلوى دارالكتب العلمية ـ بـــيروت ـ لبنـــان ـ ١٤٠٢هـــ ١٩٨٢م.

ـ علـــوم البلاغـــة لأحمـــد مصطفـــى المراغـــى ـ طبعـــة الحلبـــى بالقـــاهرة ١٩٥٠م.

ـ العمدة لإبن رشيق القيروانى ـ مطبعـــة الســـعادة

ـ الفائق فى غريـــب الحديـــث للزمخشـــرى ـ المطبعـــة النظاميـــة بالهند

ـ الكشاف الزمخشرى ـ دار الكتـــاب العربـــى

ـ لسان العرب لابن منظـــور ـ دار المعـــارف

ـ معاهد التنصيص للعباســـى ـ مطبعـــة الســـعادة ونســـخة آخـــرى عالم الكتـــب

ـ مفتاح العلوم للإمام أبى يعقوب يوسف بن أبـى بكـر محمـد بـن على السكاكى ت ٦٢٦هـ كتـب هوامشـه وعلـق عليـة نعيـم زرزور دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان الطبعـة الثانيـة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧.

ـ مقـاييس اللغـة لإبـن فـارس ـ تحقيـق عبـد السـلام محمـد هارون ـ الطبعة الثانيـة ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م.

ـ الموشـح فـى مـآخذ العلمـاء علـى الشـعراء للمرزبـانى ت ٣٨٤هـ المطبعة السـلفية ١٣٤٣هـ

ـ النابغة الذبيـانى للأسـتاذ / عمـر الدسـوقى ـ مطبعـة نهضـة مصر بالفجالـة

ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفـر ـ مطبعـة الجوائـب بالقسـطنطينية ١٣٠٢هـ

ـ يتيمـة الدهـر لأبـى منصـور الثعـالبى ت ٤٢٩هـ مطبعـة الصـاوى ١٩٣٤م.